## الجزء الأول

# التطوير والتأسيس

من بنك الأفكار إلى سؤال الفلم إلى الوصول والثقة

٠١

# من أين تأتي الأفكار التي تُنتَج فعلاً؟

*الكاميرا لا تبدأ حين تُشغَّل، بل حين يصبح لديك ما تبحث عنه*

### الفكرة القابلة للتصوير

في الفيلم الوثائقي تُغريك الكاميرا دائماً بأن تبدأ مبكراً: تذهب إلى المكان، تقابل الناس، تجمع ساعات من المادة، ثم تقول «سنرى في المونتاج»، أحياناً تنجح هذه الطريقة، لكنها في أغلب المشاريع تُنتج شيئا واحداً: مادة خام كثيرة وفيلم قليل.

الفرق بين مشروع يُنتج فعلاً ومشروع يتعثر ليس في جودة العدسة ولا في مهارة التصوير وحدها، بل في لحظة أبكر بكثير: هل تملك فكرة يمكن تصويرها؟ وهل تعرف لماذا تستحق اثنتين وخمسين دقيقة؟ في القنوات الوثائقية والمنصات الرقمية، الفكرة ليست «موضوعاً» عاماً ولا رأياً في قضية، الفكرة هي وعد محدد: من سنرى؟ ماذا سيتغير؟ أين ستذهب الكاميرا؟

الفكرة القابلة للتصوير هي التي تستطيع أن تلخّصها بهذه الجملة: «أستطيع أن أُري المشاهد هذا المعنى في فعل يحدث أمام الكاميرا»، للتوضيح: «الهجرة» موضوع، أما رجال مسنّون يعيشون في سكن جماعي بمرسيليا، يتنقلون بين مستشفى وإدارة لأن معاش التقاعد يجعل العودة مخاطرة فهذه فكرة قابلة للتصوير: فيها مكان، وحركة، واحتكاك، وزمن، وتناقض.

الفكرة القابلة للتصوير تمتلك أربعة عناصر لا غنى عنها: شخصية ذات وجوه حقيقية لا مجرد «فئة» مجردة، وهدف أو رغبة ولو كانت بسيطة، وعائق واضح يُبطئ السير نحو ذلك الهدف، وعالم بصري يمكن دخوله بالكاميرا دون أن يغلق أبوابه في وجهك.

✦

## من أين تأتي الأفكار؟ وكيف تُضيِّق دون خيانة المعنى؟

خمسة مصادر تُنتج أغلب الأفلام التي تُبث فعلاً: الشخصية التي تحمل تناقضاً داخلياً يجعلها مثيرة للمتابعة لا مجرد رمز, والمكان الذي يكون شخصية بذاته لا مجرد خلفية جمالية، المكان الذي حوّله الزمن أو الإهمال أو الإصرار الإنساني, والحدث الذي لا يتكرر، فينتظره الفيلم أو يُبنى حوله, والنظام أو الإجراء البيروقراطي الذي يضغط على الإنسان ويجبره على الصراع اليومي الصامت، وأخيراً السر المعلن الذي يعرفه الناس ويخافون من قوله بصوت عالٍ.

لكن امتلاك الفكرة شيء، وتضييقها لتصبح قابلة للتصوير شيء آخر، كثيرون يخطئون هنا خوفاً من «خيانة المعنى» فيُبقون الفكرة واسعة حتى تضيع، الحل في أربع عدسات: اتبع شخصاً واحداً يحمل القصة كلها في تفاصيل يومه، أو اتبع مكاناً يصبح هو المرآة التي تعكس المعنى، أو اتبع زمناً محدداً تتكثف فيه القصة كالأسابيع الأخيرة قبل قرار، أو اتبع صراعاً إدارياً أو قانونياً تتجلى فيه قسوة النظام أو رحمته.

اختر عدسة واحدة كبداية، ثم اسأل نفسك: إذا فقدتُ أحد عناصر الفكرة بعد بدء التصوير، هل لديّ بدائل تحمل نفس المعنى؟ إذا كانت الإجابة نعم، أنت جاهز، إذا كانت الإجابة لا فأنت تقامر بفيلم كامل على متغير واحد.

### اختبار الستين ثانية

قبل أن تصرف وقتك في البحث أو تُقنع أحداً بالفكرة، أجب عن هذه الأسئلة بصوت عالٍ في أقل من دقيقة: من هي الشخصية الرئيسية؟ ماذا تريد تحديداً؟ ما الذي يمنعها؟ أين ستكون الكاميرا؟ وما مشهد الذروة المحتمل الذي يختبر الشخصية والفيلم معاً؟

إذا تلعثمت في أيٍّ من هذه الأسئلة، فليس معناه أن الفكرة سيئة بل أنها لم تنضج بعد، والفكرة التي لم تنضج لن تصمد أمام أول موقف ميداني معقّد.

. . . . .

**⬡ تمرين عملي — بنك أفكار يفرز الأفضل**

**الخطوة الأولى** اكتب اثنتي عشرة فكرة خلال عشرين دقيقة دون تقييم أو رقابة ذاتية، الكمية قبل الجودة في هذه المرحلة.

**الخطوة الثانية** طبّق ثلاث مصافٍ: مصفاة المشهد (هل يمكن تصوير هذه الفكرة كفعل؟)، ومصفاة الوصول (هل يمكن الدخول إلى هذا العالم؟)، ومصفاة الصراع (هل فيها توتر يمكن بناء فيلم حوله؟).

**الخطوة الثالثة** اختر ثلاث أفكار نجت من المصافي، ثم اسأل: أيها لو تعثرت سأظل قادراً على إنقاذها بمشاهد بديلة؟ هذا هو السؤال الفارق.

. . . . .

### ◆ صندوق الأدوات

**للمبتدئ:** خمسة أسئلة لا تبدأ بدونها، من؟ ماذا يريد؟ لماذا الآن؟ ما الذي يمنعه؟ أين ستصوّر ذلك؟ إذا أجبت عنها بوضوح فأنت تملك بذرة فيلم.

**للمتوسط خمس إشارات خطر:** الفكرة تعتمد على خبراء أكثر من أشخاص يعيشون تجارب، لا توجد ذروة محتملة يمكن تصويرها، لا يوجد وصول مؤكد أو حتى وصول قيد التفاوض، الفيلم يريد أن يقول كل شيء في وقت واحد، والعنوان لا يمكن تلخيصه في سطر واحد يحمل توتراً.

**للمحترف:** وعد سردي في سطر واحد، خطة وصول مكتوبة لا شفهية، خطة بديلة لكل عنصر أساسي، ميزانية وجدول منطقيان لا متمنّيان، ووعي أخلاقي وقانوني مسبق حتى قبل الجلسة الأولى مع الشخصيات.

. . . . .

### خلاصة الفصل

*الفكرة الوثائقية ليست موضوعاً واسعاً ولا رأياً في قضية، هي القدرة على أن تقول: هذا ما سأريه للمشاهد، هؤلاء من سأتابع، هذا هو العائق، وهذه اللحظة التي سنصل إليها، كل شيء يأتي بعد ذلك، البحث والوصول والتصوير والمونتاج، يخدم هذه الجملة أو يكشف أنها تحتاج تعديلاً، لا بأس بأيٍّ من الاحتمالين، المهم أن الجملة موجودة منذ البداية.*